مقدمة

بدأ العقل العلمي في مطلع القرن العشرين يعيد النظر في أسسه ومبادئه وتصوراته ونظرياته بفعل ثورة العلم المعاصر التي أدت إلى تغيرات جذرية في النظر إلى هذا العقل، فقد أصبح العقل العلمي في القرن العشرين أداة نقد وتقويض للأنساق والمناهج والأسس العلمية الثابتة والكلية التي كانت تسعي التصورات الفلسفية العقلانية الحديثة إلى تبريرها والبقاء عليها بحجة أنها حقائق صادقة وبديهيات يقينية ومسلمات لا تقبل النقد أو المناقشة، إلا أنه بفضل مراجعات بعض فلاسفة العلم المعاصرين للعقل العلمي الحديث وتصوراته الفلسفية العقلانية، تخلي هذا العقل عن قدر كبير من التصورات والأفكار الجامدة والمناهج العلمية الثابتة التي أعاقت تقدم هذا العقل إلى الأمام.

ولعل أبرز فلاسفة العلم المعاصرين الذي قدم رؤية جديدة وثاقبة للعلم وفلسفته من ناحية، ولنقد العقل العلمي الحديث من ناحية أخرى، ولتصوره للشكل الذي يمكن أن يتخذه هذا العقل في المستقبل من ناحية ثالثة.. فيلسوف العلم النمساوي الأصل بول كارل فيرآبند .K.P. Feyerabend (١٩٢٤-١٩٩٤) الذي أثار الجدل والنقاش في مجالات معرفية عديدة لما يقدمه من رؤى جديدة وثاقبة اتسمت بطابعها النقدي التصويبي، حيث أنحرف بول فييرآبند، عامداً، عن نظريات العقلانية العلمية الحديثة التي شكلت بنية وجوهر العقل العلمي، وقدم جواباً لتساؤلات لم تجد تلك النظريات جواباً شافيا لها، ومن هنا تأتى أهمية هذا الفيلسوف في طرحه لآليات جديدة نري من خلالها العقل العلمي بشكل أكثر رحابة ونضجاً، بالإضافة إلى موقفه النقدي الصارم للعلم والحضارة الغربية لسعيهما للسيطرة علي العلوم والحضارات غير الغربية باسم العقلانية العلمية تارة وقواعد المنهج العلمي تارة أخرى.

لقد لقب هذا الفيلسوف بالعديد من الألقاب ووصف بعدة أوصاف، فهو فيلسوف العلم المشاكس أو صاحب القلب المتحجر أو العدو اللدود للعلم، وقد جاءت هذه الألقاب نتيجة ما أثاره هذا الفيلسوف من انتقادات لفلاسفة العلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وإذا كان بول فييرآبند قد عرف بأنه فيلسوف علم من الطراز الأول، إلا أنه يشدد في معظم كتاباته علي أنه لا يشيّد نظريات ولا يضع قواعد منهجية، وإنما هدفه الرئيسي هو إيجاد السبيل إلى مناهج ونظريات متعددة وإعطاء الفرصة للمعارف غير الغربية للتعبير عن نفسها، فكل شئ مقبول في العلم وفلسفته، وأن فرض طريقة بعينها أو منهج علمي واحد داخل العلم، هو نوع من السيطرة الأيديولوجية التي تحاول فلسفات العلم تبريرها بإضفاء صبغة عقلانية غربية عليها، لهذا كان جدير بنا أن نكرس صفحات هذه الكراسة لإلقاء الضوء علي فيلسوف العلم المعاصر بول فييرآبند ونقده لصور العقلانية العلمية الحديثة في فلسفة العلم.ولكن قبل البدء في كشف هذه الانتقادات علينا أن نتعرف عن قرب بهذا الفيلسوف الذي أثارت كتاباته وآرائه الكثير من الجدل والنقاش بين العلماء والفلاسفة علي حد سواء.

بول فييرآبند : حياة ضاع وقتها سدي

كتب بول فييرآبند سيرته الذاتية في كتاب يحمل عنوان " وقت ضائع سدي : سيرة ذاتية لبول فييرآبند " والذي نشر بعد وفاته بعام واحد، أي عام ١٩٩٥، وعلي الرغم من أن كتابات بول فييرآبند يسود معظمها بعض العبارات والشعارات الغامضة والانفعالية، وفي أحيان كثيرة يسودها السخرية، إلا أنه يبدو في هذا الكتاب أكثر جدية وموضوعية في تناول سيرته الشخصية والأكاديمية علي حد سواء، أما لماذا اختار بول فييرآبند هذا العنوان ليكون تعبيراً عن سيرته الذاتية، فإن هذا يعود إلى إحساسه أن هناك فترات عديدة من حياته قد مرت بلا هدف ولا غاية ومن ثم كان هناك جزء كبير من حياته قد ضاع سدي.

ويغلب علي كتاب بول فييرآبند "وقت ضائع سدي" المزيد من الموضوعات والأحداث الشخصية التي تعرض لها أثناء حياته، حيث يبدأ في تتبع سيرته

الذاتية منذ طفولته حتى وصوله إلى هذه المكانة الأكاديمية العالمية الرفيعة، كما يتحدث في هذا الكتاب عن حياته أثناء الحكم النازي وخبرته في الجيش الألماني وقصة الطلقات النارية التي أصابته بالشلل وجعلته عاجزاً يعاني من الآلام طيلة حياته، كما يتذكر بول فييرآبند في هذا الكتاب مواهبه العديدة في الغناء والتمثيل وفن الأوبرا ولقاءاته مع الفيلسوف ذائع الصيت فتجنشتين، بالإضافة إلى تذكره لعلاقاته الغرامية النسائية العديدة والزيجات الأربع وكيف أنه يفاخر دائما بأنه مطارد جيد للنساء.

علي أية حال، عاش بول فييرآبند طفولة مليئة بمشاعر الغربة والوحشة والخوف من الجيران والأطفال والعالم بأسره الذي كان يمثل له خطراً كبيراً فقد ذكر أنه انحدر من أسرة فقيرة امتنعت عن الإنجاب لمدة خمسة عشر عاما حتى يتوفر لها ما يفي لسداد تكاليف إنجاب طفل (بول فييرآبند) فضلاً عن مرض الأب وقعوده عن العمل ومرض الأم ببعض الأمراض العقلية التي أدت في النهاية إلى انتحارها، كان هذا الجو الأسرى الممزق الدافع إلى ابتعاد بول فييرآبند عن أسرته وتفضيله للعيش بمفرده وفي عزلة شبه كاملة.

التحق بول فييرآبند بالمدرسة الابتدائية في السادسة من عمره، وكان لهذه التجربة الجديدة أثرها السيئ علي فييرآبند الطفل، فلم يستطع التكيف، في بداية الأمر، مع أقرأنه، فمرض وأبتعد عن المدرسة، ولكن سرعان ما تلاشت مشاكله الصحية عندما تعلم القراءة ووجد العالم الجديد والسحري في الكتب التي تنتظره والتي أنغمس فيها.

وعندما أتم المرحلة الابتدائية التحق بالمدرسة الثانوية ليتخصص في العلوم واللغات، وقد أهتم بول فييرآبند بقراءة كتب الفيزياء والفلك بالإضافة إلى شغفه بالآداب وخاصة أعمال دون كيشوت وشكسبير وإبسن وجوته.

ولم تكن الفلسفة بعيدة عن اهتمامات بول فييرآبند في هذه المرحلة المبكرة، ولعل الصدفة هي التي قادت فيلسوفنا إلى طريق الفلسفة، فقد كان من عادة بول فييرآبند شراء الكتب المستعملة وخاصة الروايات والقصص والمسرحيات، فوقع في يده بعض المؤلفات الفلسفية وخاصة مؤلفات أفلاطون وديكارت، فبدأ في قراءة هذه المؤلفات وتفسيرها. ومنذ ذلك الحين أصبحت

obeikandl.com

الفلسفة، وخاصة القديمة منها، هي شغله الشاغل،وهذا يفسر اهتمام فيـــيرآبند بالفلسفة القديمة في سلسلة المحاضرات التي ألقاها في كاليفورنيـــا ببـــاركلي، وربطه الدائم بين الفلسفة القديمة والعلم.

وعندما أتم فييرآبند دراسته الثانوية التحق بالجيش الألماني كضابط في ســلاح المهندسين وذلك في الحرب العالمية الثانية، وقد عرف فكفأته كضـــابط فـــي الجيش حتى حصل علي جائزة الصليب الحديدي عام ١٩٤٤، وقـــد أصيـــب فييرآبند إصابة بالغة في الحرب بعدة طلقات نارية في وجهه ويده وعمـــوده الفقري مما تسبب في إصابته بالشلل الجزئي وعجزه عن الحركـــة الطبيعيـــة طوال حياته. وقد انعكست هذه الإصابة علي حالتـــه النفســـية وعلـــي فكـــره وفلسفته، فقد كانت طلقات الغرب هي التي أصابته فبدأ ينظـــر إلـــى الثقافـــة الغربية والعلم الغربي نظرة نقدية مبينا مدي توظيـــف هـــذا العلـــم توظيفـــاً أيديولوجياً لخدمة أغراض سياسية ما.

حاول فييرآبند الاهتداء إلى عمل يتكسب منه بعد خروجه من المستشفي إثـــر إصابته في الحرب، إلا أنه فشل في تحقيق ذلك فأراد أن تكون التسلية والمتعة هي شغله الشاغل فأخذ يكتب السيناريوهات والخطب والمشـــاهد المســـرحية للمناسبات المختلفة وقصص ومسرحيات للأطفال، إلا أن هذا لم يكن يرضـــي طموح فييرآبند فقرر أن يلتحق بالجامعة، فالتحق بجامعة فيينا واختار دراســـة العلوم الفيزيائية وبدأ يتجه إلى مشكلات العلم والفلسفة حتـــى حصـــل علـــي الدكتوراه عام ١٩٥١ في المشكلات الكلاسيكية للديناميكا الحرارية.

قام فييرآبند بالتدريس في عدة جامعات ومعاهد علمية، فقد حاضر في معـــهد فيينا للعلوم والدراسات العليا من عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٥٦، ثم عمل فـــي جامعة بريستول حتى عام ١٩٥٩ ثم التحـــق بجامعـــة كاليفورنيـــا ببـــاركلي لتدريس فلسفة العلوم وتاريخها حتى عام ١٩٦٢ عمل أستاذاً لتاريخ وفلســـفة العلم بجامعة كولومبيا حتى عام ١٩٧٠ ثم عاد إلى جامعة كاليفورنيا ببـــاركلي حتى قدم استقالته من العمل الأكاديمى رسميا عام ١٩٩٠.

وفي الحادي عشر من فبراير عام ١٩٩٤ توفي فييرآبند في منزله بزيـــورخ عن عمر يناهز السبعين عاماً بعد حياة حافلة بالمشاكل النفسية والاقتصاديـــة

والفكرية إلا أنها أثمرت في النهاية عن فيلسوف علم جريء وجه كل سهام النقد والمراجعة لأسطورة تفوق العلم الغربي علي العلوم غير الغربية كاشفا زيف المشروع العقلاني العلمي الغربي الذي هو في الأساس مشروع سياسي أيديولوجي محض.

شكلت عدة خلفيات وركائز معرفية فكر وفلسفة فييرآبند وأثرت بعمق في تفكيره وفلسفته وتوجهاته نحو العلم وفلسفته، من بين الفلاسفة الذين تأثر بهم فييرآبند الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل Mill. J.S (١٨٠٦ – ١٨٧٣) حيث يتبنى فييرآبند العديد من أفكاره الواردة في كتابه "في الحرية" ١٨٥٩، حيث يدافع جون ستيوارت مل في هذا الكتاب عن الحرية الفردية والتعددية وضرورة وجود أنماط وأساليب متعددة من التفكير، هذه التعددية هي التي تكفل للإنسان الفرد حريته، يقول فييرآبند: "لقد تعلمت من جون ستيوارت مل وخاصة في كتابه "في الحرية" أن وجهات النظر العالمية المختلفة ينبغي أن توضع في الاعتبار، فهذه التعددية التي قال بها جون ستيوارت مل قد ساعدتني في وضع نظرية الاختبار علي هذا الأساس". لهذا يمكننا القول أن الأساس الذي استند عليه فييرآبند في عقلانيته العلمية والذي يكمن في دعوته للتعددية المعرفية والمنهجية والثقافية والسياسية قد استمده من جون ستيوارت مل.

ويذكر فييرآبند أنه يدين بوضعه الفلسفي المبكر الذي كان يتبناه عندما كان طالباً،إلى الفيلسوف لودفيج فتجنشتين L Wittgenstein. (١٨٨٩-١٩٥١) الذي كان له شهرة فلسفية واسعة في النمسا ثم في إنجلترا بعد هجرته إليها، لما أثاره فكره وفلسفته من مشكلات ومناقشات فلسفية (وإن كان فتجنشتين ذاته لا يعترف أصلاً بأن ثمة مشكلات فلسفية بل المشكلات عند فتجنشتين مشكلات منطقية في الأساس) كان لها أكبر الأثر علي الأوساط الفلسفية. وقد عرض فتجنشتين نتائج أبحاثه الأولية في رسالته المعروفة باسم "رسالة منطقية فلسفية" والتي كان من أهم نتائجها، نقدها للعبارات الميتافيزقية، إذ بينت أن أمثال هذه العبارات ما هي إلا نتيجة الخطأ في فهم منطق اللغة. لهذا آمن فييرآبند إيمانا قاطعاً، منذ أن كان طالباً، أنه ليس ثمة معرفة علي

الإطلاق سوي المعرفة العلمية وكل ما عداها هراء، يقول فيـــيرآبند :"كنـــت اعتقد أنه ليس ثمة معرفة علي الإطلاق سوي المعرفة العلمية وكل ما عداهـــا هراء بعد قراءاتي لأعمال فتجنشتين وخاصة "أبحاث فلســـفية" التـــي كـــانت مخطوطة آنذاك. وتقوم بترجمتها الفيلسوفة الإنجليزية الـــيزابيث أنســـكومب Anscombe E من الألمانية إلى الإنجليزية.

لقد بدأت علاقة فييرآبند بفتجنشتين عندما كان الأول طالبا في حلقة الفيلسوف الوضعي فكتور كرافت Kraft. V الذي أسس حلقة فلســـفية تدعـــي "دائـــرة كرافت" ضمت هذه الدائرة العديد من الفلاسفة والأدباء والعلماء، ممـــا أتـــاح لفييرآبند الفرصة لمقابلة العديد من الشخصيات البارزة في مجالات المعرفـــة المختلفة وكان من أبرز تلك الشخصيات فتجنشتين الذي زار دائـــرة كرافـــت عام ١٩٤٩ لإلقاء محاضرة هناك فتقابل معه فييرآبند وأصبح مقتنعاً بأفكـــار فتجنشتين مما أدي إلى سفر فييرآبند إلى إنجلترا للدراسة تحت إشرافه بجامعة كامبردج إلا أن الموت داهم هذا الأخير عام ١٩٥١ فلم يجد فييرآبند ســـوي كارل بوبر ليصبح مشرفاً علي دراسته في مدرسة لندن للاقتصاد، فدرس عام ١٩٥٢ نظرية الكوانتم تحت إشراف كارل بوبر إلا أن الوضع لـــم يســـتمر طويلاً وفضل فييرآبند العودة مرة أخرى إلى فيينا بعدما رفض وظيفة مساعد لكارل بوبر وهي الوظيفة التي قبل بها تلميذ كارل بوبر النجيـــب وفيلســـوف العلم اليهودي الشهير جوزيف آجاسي Agassi. J، ورغم هـــذا لا يمكـــن أن نغفل تأثير عملاق العقل العلمي كارل بوبر، الذي امتـــدت فلســـفته لمعظـــم مباحث الفلسفة المختلفة، علي فييرآبند وخاصة في المرحلـــة المبكـــرة مـــن تطوره الفكري والفلسفي. فقد وقف موقف التأييد لآراء كارل بوبر حتى أننـــا يمكن أن نطلق علي المرحلة المبكرة من فكر فييرآبند بالمرحلـــة البوبريـــة، يقول فييرآبند :"أن إعجابي بكارل بوبر وكتابه منطق الكشف العلمـــي كـــان بمثابة نقطة البدء والمحرك الأساسي في أبحاثي". وقد أنعكس هذا التأثير علي العديد من المشكلات التي تناولها فييرآبند في فلسفته، فضلا عن اتخاذ فييرآبند النقد، والذي يعد صلب عقلانية بوبر العلمية وجوهرها، الحلقة الأولـــي فـــي فلسفته العقلانية.

وعلي الرغم من هذا لم يقف الإعجاب حائلا أمام بول فييرآبند الـــذي أتخـــذ موقف الرافض والمفند لعقلانية كارل بوبر العلمية في مراحله اللاحقـــة مـــن تطوره الفكري، أعني مرحلة الاستقلال عن كارل بوبر والنضج الفلسفي وقـــد أتخذ هذا الاستقلال في البداية شكل السخرية من كارل بوبر ذاته، ففي حـــوار بين بول فييرآبند وإحدى الشخصيات التي اختلقها للتحاور نجد استخفافاً شديداً بكارل بوبرعلي هذا النحو:

المحاور : لماذا هاجمت العقلانية النقدية التي هي أساس فلسفة كارل بوبر؟

فييرآبند : أنا لا أعرف أن لبوبر فلسفة.

المحاور : أنت لا يمكن أن تكون جاداً فقد كنت تلميذاً لـــــه وترجمـــت لـــه المجتمع المفتوح.

فييرآبند : لقد استمعت فقط لبعض محاضراته، أما عن ترجمة هذا الكتـــاب فقد كنت في حاجة إلى نقود.

المحاور : أنت تشير إلى بوبر كثيراً في هوامش مؤلفاتك وكل حججك تدور في الإطار البوبري.

فييرآبند : هذا خطأ،صحيح أن مناقشاتي مع بوبر قد انعكست في كتابـــاتي المبكرة، إلا أنها مثلها مثل مناقشاتي مع الـــيزابيث أنســـكومب وفتجنشتين وبور، وقد قرأت عن الدادية والتعبيرية وكـــل هـــذه الأشياء تركت أثراً كبيراً علىْ، إلا أن فتجنشـــتين كـــان أعظـــم فيلسوف في القرن العشْرين قاطبة.

المحاور : أعظم من بوبر ؟

فييرآبند : إن بوبر ليس فيلسوفاً بل هو متحذلق وهذا يفسر لمـــــاذا يحبـــه الألمان.

ورغم ما يصرح به فييرآبند من تنصله الكامل من كارل بوبـــــر واســـتخفافه بفلسفته إلا أن فييرآبند لم ينسلخ كليةً من تأثير بوبر عليه، صحيح أن فييرآبند بدأ حياته الفكرية والفلسفية تلميذاً مباشراً لبوبر يسير علـــــي خطـــي أســـتاذه النقدية، إلا أن حماس فييرآبند الزائد للروح النقدية ورفضه لفكرة وجود منهج

علمي ثابت وقواعد محددة جعله يبتعد عن آراء أستاذه بوبر، ولا يعني هذا تقليل من شأن هذا الأخير بل إن تأثير كارل بوبر جد عظيم.

وتعد فترة الستينيات من القرن العشرين من أخصب الفترات التي مرت في حياة بول فييرآبند الفكرية والفلسفية والعلمية، هذه الفترة كانت مفعمة بالعلاقات والصدقات مع فلاسفة عظام كان لهم أكبر الأثر علي فييرآبند وتشكيل فكره وفلسفته. فلقد قضي ما يقرب من أربعين عاماً في البلاد المتحدثة باللغة الإنجليزية، أثنان وثلاثون عاماً في الولايات المتحدة الأمريكية التي هاجر إليها عام ١٩٥٩ وتجنس بجنسيتها وأصبح مواطناً أمريكياً، وفي جامعة كاليفورنيا ببباركلي التقي بالعديد من فلاسفة العلم والفيزيائيين نذكر منهم إرنست فيجل Feigel. A ورودلف كارناب Carnap. R وغيرهم الكثير.

أعمال بول فييرآبند الفلسفية

لم يضع فييرآبند أثناء حياته قائمة كاملة بمؤلفاته، ويرجع الفضل في وضع هذه القائمة إلى زوجته جرازيا بوريني Grazia Borrini وإلي عدد كبير من تلاميذه المهتمين بفكر وفلسفة فييرآبند وقد صدرت هذه القائمة في أخر أعماله المنشورة أعني المجلد الثالث من سلسلة " أبحاث فلسفية " والذي نشره جون بريستون Preston J عام ١٩٩٩.

ويمكن تقسيم هذه القائمة إلى ثلاثة أقسام رئيسية : **القسم الأول** : ويضم **مؤلفات الشباب** : وهي المؤلفات التي وقع فيها فييرآبند تحت التأثير البوبوي كالعديد من فلاسفة العلم المعاصرين، حيث انصبت هذه المؤلفات علي النقد والواقعية وهي تلك الأفكار التي دافع عنها كارل بوبر وأصبحت أساس عقلانيته العلمية وجوهرها. أما **القسم الثاني** : فيضم **مؤلفات النضج الفلسفي والاستقلال** : حيث يتجاوز فييرآبند في هذه المؤلفات التأثير البوبري ويتجه نحو عقلانية أكثر شمولاً وفاعلية يتجاوز فيها المذاهب التجريبية الكلاسيكية والتكذيبية البوبرية ويعلن ضديته للمنهج العلمي ولكل أشكال العقلانية العلمية الحديثة والمعاصرة التي فرضت نفسها علي المجتمع العلمي الغربي من أجل السيطرة عليه. أما **القسم الثالث** : فيضم **مؤلفات الشك والنسباوية** : حيث

يرتاب فييرآبند في المثل الغربية العلمية والموضوعية الثابتة للتقدم العلمي ويعلن عدائه للعلم والحضارة الغربية معلنا ميلاد العقلانية العلمية النسباوية.

لقد حاولنا علي صفحات هذه الكراسة مناقشة مفهوم العقلانية العلمية في فلسفة العلم الحديثة التي عبر عنها فلاسفة العلم في القرن العشرين أمثال كارل بوبر وتوماس كون وإمري لاكاتوس وقد اخترنا شخصية لها مكانتها العلمية والفكرية في فلسفة العلم المعاصرة هو بول فييرآبند ليدخل كعنصر أساسي في المناقشة ناقدا لأشكال العقلانية العلمية تلك، ويأتي هذا العمل الذي تتولي نشره المكتبة الأكاديمية في سلسلة كراساتها العلمية تلك الكراسات التي تسعي إلي زيادة وعي المثقف العربي بضرورة العلم والتفكير العلمي في حياتنا، ليقدم للقارئ الكريم نموذجا من النقد العلمي والمعرفي للعقلانية العلمية الحديثة لا لهدمها بل لتقديم صورة أخري أكثر رحابة وإنسانية للعقلانية.

obeikandl.com